من بناءات أسئلة القرآن الكريم
(تحليل لغوي)

د. هادي حسن حمودي
جمهورية العراق

ظاهرة الاستفهام لا تخلو منها لغة من لغات العالم. وله في العربية باب كبير من أبواب النحو. ولا نعرف أحدا من اللغويين درسه دراسة لغوية خارج إطار النحو، وأحيانا يستشهد ببعض ما فيه علماء البلاغة.

و يتلخص عمل النحويين في الاستفهام على تحديد (أدوات الاستفهام) ومعانيها، وهي، عندهم، ما بين حروف لا محل لها من الإعراب، وأسماء لها محل من الإعراب، على ما هو مفصل في كتبهم. واستفاد البلاغيون منه، وخاصة في علم المعاني، كالاستفهام التقريري والتوبيخي وغير ذلك.

ونلاحظ أنهم فرضوا على لغة التنزيل العزيز رؤاهم، فقرروا أن هذه الآية تقرير، وتلك توبيخ، وأخرى دالة على شيء آخر. كما نلاحظ أنهم لم يتفقوا على رأي بشأن دلالاتها، فحين يقول فريق منهم بأن آية كذا دالة على التوبيخ، يقول فريق آخر إنها دالة على التقرير.. وهكذا..

كل هذا لا يعنينا، وإنما نريد في هذه الصفحات، وربما تعقبها أخرى، بتقديم دراسة لغوية تحليلية، لما جاء في القرآن الكريم من آيات فيها أدوات الاستفهام، من حروف وأسماء، ناظرين في تركيب الجمل ودلالاتها.

ونظرا لكثرة صيغ الاستفهام في التنزيل العزيز، نكتفي هنا، بثلاث عشرة آية، حسب ما يسمح به حجم المقال، مبتدئين من استفهام بلا أداة ومتطرقين إلى بعض الاستفهام بالهمزة, لنبين أن الاستفهام في التنزيل العزيز ليس استفهاما، وإنما هو صيغة تساؤل لا يحتاج إلى جواب.

ثم لنعرض منهجا في الفهم اللغوي للتشكيل اللغوي للقرآن منطلقين منه بذاته ومن أجل فهمه، لا برؤى خارجة عنه وعن أسلوبه وتركيبه اللغوي.

نبدأ بآية جاء فيها تساؤل بلا حرف استفهام.

* التّساؤل بلا حرف استفهام

1- قال تعالى:"**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**" البقرة: ١٢٤

مُقدّمات الاستفهام	حرفه	المستفهم عنه	جوابه
ابتلاء إبراهيم بكلمات ↓ إتمامه (لهنّ) ↓ جَعْلُه للناس إماما		العهد والذُّرّيّة؟	لا ينال عهدي الظالمين

ثلاث مقدمات ترتبط بجواب الاستفهام عبر صيغة استفهامية حذف حرف الاستفهام منها: واكتفي بدلالة السياق عليه.

ثلاث مقدمات والجواب ثلاثة اجزاء. كلّ مقدّمة يقابلها جزء من الجواب:

فالابتلاء ← نوال: نوال يكشف به الانسان حقيقته, وحسب الرؤية القرآنية فإن المرء لا يُثاب ولا يُعاقب من غير الابتلاء. فإنْ صبر وأحسنَ نال ثواب عمله, وإلاّ فله سوء العاقبة والمصير. والابتلاء يعني أنّ المرء موضع عناية الله تعالى, وبين يدي رحمته. فبالابتلاء الذي يشمل اليُسر والعُسر ينفسح الميدان لمن اراد الفوز: قال تعالى: "**...ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** آل عمران: ١٥٢ وأيضا: "**فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**" الفجر: ١٥ - ١٦. فالابتلاء فضل من الله يَمُنُّ به على النّاس وسيلة للوصول إلى رضوانه ونعيمه. فهو نوال وأيّ نوال!

والإتمام ← عهد: عهد من الله لعباده المطيعين الذين وضعوا أنفسهم في موضع استحقّوا به أن يوفقهم لاجتياز ذلك الابتلاء: وما كان لإبراهيم، عليه السلام، أن يتم كلمات ربه لولا ذلك الفضل الالهي العميم "**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...**" البقرة: ٢٥٣

"...**فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**"البقرة: ٦٤ فما كنتم لتجتازوا الابتلاء والاختبار لولا عهد الله باسباغ فضله عليكم.

والإمامة ← عهد لا ينال الظالمين. فإبراهيم قد تقبل الابتلاء عبدا مطيعا وأتمّ الكلمات فأوفى له الله بعهده. وجاءت لحظة الخاتمة, ومحصلة الابتلاء.. (إني جاعلك الناس إماما). فأما الظالمون من ذريتك فلا يشملهم هذا العهد. فالإمامة ليست نظاما, وليست وراثة. إذ الإمام كلّ من اقتُدِيَ به, ولذا كان فرعون إماما لأتباعه.

ولقد تم الترابط بين المقدمات والنتيجة بالاستفهام: (ومن ذرّيتي؟) إذ المقدمات (ابتلاء ابراهيم – الاتمام – جعله للناس إماما) خبر ليس له ان يكون عاما يشمل الناس على اختلاف ازمانهم وامصارهم إلا بالجواب: (لا ينال عهدي الظالمين) الذي يمثل محصلة المقدمات. تلك المحصلة التي نقلت الحدث الابراهيمي من شخص ابراهيم إلى عموم الأديان التي جاءت من بعده.

وبالنظر لهذا الهدف جاءت جملة الاستفهام قصيرة موجزة, وهي على وجازتها, او بسبب تلك الوجازة, مفهومة أدقّ الفهم, وواضحة أبلغ الوضوح, (ومن ذريتي) أينال الامامة أحد؟ حيث ان حذف حرف الاستفهام, وتمام جملته, ليدل -بجلاء- على ان الاستفهام لم يُقصد لذاته, وانما عدّ ربطا بين مقدمات خاصّة ونتيجة عامّة. ومما يؤكد هذا الذي قرّرناه ان جواب الاستفهام لم يكن ردا على الاستفهام بصورة مباشرة إذ لو كان كذلك لجاء بأحد حروف الجواب من قبيل: نعم, أو, لا, أو ما أشبه ذلك, وانما كان جوابا غير مباشر, جوابا يخلو من أيّ من تلك الحروف, اشارة بليغة إلى أن الاستفهام لم يكن مرادا لذاته, وانما كان معبرا ينتقل به الخاص إلى العام.

****

التّساؤل بحرف الهمزة

آمنتم به..؟

2- قال تعالى: " **وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**" الأعراف: ١٢٠-١٢٣ **قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا**

إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126)الأعراف: ١٢٥ - ١٢٦

مقدمات الاستفهام	حرفه	جملته	جوابه
إيمان السحرة		آمنتم به قبل ان آذن لكم؟	إنا إلى ربنا منقلبون وما تنقم منا....

يلقي النبي موسى عصاه (فاذا هي تلقف ما يأفكون), فيسجد السحرة معلنين إيمانهم, يغضب فرعون وينكر عليهم ذلك الإيمان ويتهددهم بأنواع العذاب. فكان جوابهم: إنّا إلى ربنا منقلبون....

الاستفهام هنا لم يقصد لذاته, ولم يُنتظر له من جواب, بل هو تقرير لواقع. واستنكار لحدث, ومن هنا أجاز بعض القَرَأة ان تكون الآية خلوا من الاستفهام, باعتبار قول فرعون: آمنتم به, خبرا لا استفهام فيه. والأكثرون على قراءة الاستفهام, وهي عندنا أبلغ لمعنى الإنكار, وأمعن في تصوير الانهيار الذي أصيب به فرعون وهو يرى بنيانه ينهدّ, ودعائمه تتقوض. وبمقتضى فهم الآية على أساس الاستفهام, أوجب النحويّون أمّا تثبيت لفظ همزة الاستفهام! وإمّا تقديرها. ويختلف المثبتون لفظها ما بين تحقيق الهمزتين بالنطق بهما, وبين تحقيق الاولى وتسهيل الثانية, وهو خلاف في القراءة بين من يقرأ: أآمنتم, وبين من يسهل همزة الإيمان (آمنتم) ليتيسر على القارئين لفظ (آمنتم). وأيّا كان الأمر فإنّ الاستفهام هنا قد خرج عن معناه لاداء معنى الانكار والاستنكار. ومنهجنا أننا لا نظيف إلى القرآن شيئا خارجا عن ثابته.

****

أإذا.. أإنّا؟ (1)

3-قال تعالى: "وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ" السجدة:١٠ - ١١

مقدمات الاستفهام	حرفه	جملته	جوابه
الضلال في الأرض	أ	إنا لفي خلق جديد	بل هم بلقاء ربهم كافرون, قل يتوفاكم ملك الموت..

الاستفهام هنا استفهام مركّب, يتداخل فيه شرط وجزاء, وجواب مركّب أيضا, يتداخل فيه إضراب, وتقرير, كما يتحول جزء من جملة الاستفهام إلى مقدمة له لاقتضاء السياق. أمّا الإضراب فهو إعراض عن كلام سابق, ونفيُه ورفضه. وأمّا التّقرير, فذكر أمر حاصل.

والاستفهام المركب يتكوّن من:

همزة استفهام + أداة الشرط + فعل الشرط (أإذا ضللنا في الأرض), ثم, همزة استفهام + جملة إسمية جوابية مؤكدة (أإنا لفي خلق جديد), ولو أردنا تبسيط هذا الاستفهام, فيكون – في غير القرآن الكريم:

أإنا لفي خلق جديد بعد أن نضيع في طوايا الأرض؟

وإنما قدّم القرآن جملة (إذا ضللنا في الأرض) إرادة لأغراض عديدة, يهمّنا منها ما يتّصل ببناء جملة الاستفهام, حيث إنّ هذا التقديم يفيد البيان الجليّ لما عليه عنادهم المتجاوز كل الحدود. فهم يذكرون أمرا يعرفه الجميع ويؤمنون به, وهو الموت و(الضلال) في طوايا الأرض بالتحوّل إلى تراب وما إليه, ثمّ يتعكّزون على هذه الحقيقة لبيان ما يزعمونه من إنكار البعث يوم القيامة, وكونهم (في خلق جديد).

وهذا أسلوب من أساليب الحوار, أن يذكر المتحاور حقيقة مُسَلّما بها ثم يبني عليها ما يريد إيصاله إلى مُحاوره من أفكار. فإنْ كانت ثمّة علاقة بين الحقيقة الأولى وما يأتي بعدها، اتّصف الحوار بالعلميّة والصواب, وإلا فإنّ الحوار مجرّد استغلال للحقيقة وتوجيهها وجهة خاطئة.

وقد لجأ منكرو القيامة إلى هذه الطريقة إيهاما للنّاس وتضليلا لهم. فجاء تركيب الآية مبيّنا أغراضهم, وعارضا له باستفهام مركّب قالوه, ثمّ ردّ عليه التنزيل العزيز ردّا مركّبا, أيضا. ذلك أنّ الاستفهام المبسّط يمكن ان يصدر من إنسان اعتيادي الطباع, ويكون جوابه آنذاك مبسّطا أيضا كأن تقول له: نعم إنكم لفي خلق جديد حتى إذا ضللتم في الارض.

فأمّا تركّب الاستفهام بتكرار الحرف وتقديم الشرط فلا يغني فيه الجواب المبسّط الميسّر وإنما هو بحاجة إلى جواب مركب أيضا ليكون من مستوى عنادهم وما أخذوا به أنفسهم من إنكار لقاء الله, إنكارا تامّا. ولذا كان الجواب مبتدئا بالإضراب باستخدام الأداة (بل) توضيحا لما أرادوه بهذا الاستفهام. فهم لم يريدوا في الحقيقة جوابا وإنما أرادوا توكيد ما في نفوسهم من عناد, وإظهار أنّ حجّتهم هي الرابحة: إذا غلبت علينا الأرض ودُفنّا فيها فإنا لن نبعث من جديد.

وبعد ان يتم توضيح مرادهم والكشف عن خبايا نفوسهم بتحقيق (بل هم بلقاء ربهم كافرون) يأتي تقرير حاسم هو جزء من الجواب الذي ما انتظروه ولا أرادوه (قل: يَتوفّاكم...) ولم يستخدم حروف الجواب "مثل, نعم, أو, بَلا" في رده عليهم اشارة إلى أمرين:

الأول: إنهم لم يريدوا باستفهامهم الاستفهام على حقيقته ليصار إلى إجابتهم على الوجه الحقيقي للجواب.

الثاني: إن طريقتهم في الاستفهام طريقة خاصة فلا بُدّ من جوابهم بطريقة خاصة أيضا. بطريقة حاسمة مركبة: إن ضلالكم في الارض لا يتمّ إلا أن يتوفاكم ملك الموت وهو مُوَكّل بكم, فأنتم لا تموتون, ولا تهلكون, ولا تُدفنون بإرادتكم, وانما هي إرادتنا, وهو ملك الموت نوكله بكم لينتزع أرواحكم حيث تموتون وتضلون في الأرض. فأسقط بذلك حجتهم الأولى, وشرطهم الذي بنوا عليه تساؤلهم (أإذا ضللنا في الارض) أي غبنا فيها او هلكنا. ثم قال: (ثم إلى ربكم ترجعون) فأجاب عن تساؤلهم (أإنا لفي خلق جديد؟) إجابة لم تخطر لهم على بال. وكيف يخطر ذلك على بال مَن أراد تقرير شيء في نفسه بدون انتظار جواب أصلا؟ ثم على فرض أنهم انتظروا جواب كلامهم فإنما كانوا ينتظرون أن يقال لهم مثلا: نعم إنكم لفي خلق جديد. غير أنّ هذا الجواب يعدّ انسياقا لما يقررونه هم, ولما يقيدون خلقهم به من قيد هو (جديد). لذا، ولغير هذا أيضا، أضرب القرآن الكريم عن كلامهم وقرر: (ثم إلى ربكم ترجعون) تحقيرا لشأنهم وشأن منطوق سؤالهم.

وعلى هذا يكون:

ضللنا في الارض, يقابله, يتوفاكم ملك الموت الذي وُكّل بكم.

إنّا لفي خلق جديد, يقابله, ثم إلى ربكم ترجعون.

فلا أنتم تختارون الضلال في الارض, ولا أنتم تختارون كونكم في خلق جديد أو عدم كونكم.

فتُنهي هذه المقابلة كلامهم, وتسفّه تساؤلهم.

ونلاحظ أنّ هذا الأسلوب مطّرد في القرآن الكريم, ونعني به أسلوب الاستفهام المركب:

همزة الاستفهام + أداة الشرط + فعل الشرط /ثم/ همزة الاستفهام + جملة إسمية جوابية مؤكدة, كقوله تعالى:

4- (وقالوا أإذا كُنّا عظاما ورفاتا أإنّا لمبعوثون خلقا جديدا) (الإسراء 49) ويكون الجواب أيضا جوابا مركبا يقابل كل جزء منه جزءا من الاستفهام ردّا وإبطالا, من غير اعتماد حروف الجواب استصغارا لشأن أولئك الكافرين. ويشبه هذا التركيب قولُه تعالى: " **قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**"الإسراء: ٥٠ - ٥١

وإنما اختلف الجواب بين الآيتين أدنى اختلاف بسبب الاختلاف في ألفاظ الاستفهام بينهما, ذلك أنّ جملة الاستفهام متكونة من فعل الاستفهام وجوابه, فكلّ تغيير في الأوّل يستلزم تغييرا في الثاني, على ما نراه في جميع آيات القرآن الكريم ممّا تكشف عنه هذه المقارنة, كمثال على الآيات الأخرى:

السجدة 10 - 11　　　　الإسراء 49 – 50 - 51

و　　　　و

1. قالوا　　　　قالوا

أإذا　　　　أإذا

الشرط　　　　كنا عظاما ورفاتا

ضللنا في الأرض　　　　أإنا

أإنا

جواب الشرط　　　　لمبعو ثون خل قا

ا في خ لق　　　　جديدا

جديد

بل هم بلقاء ربهم كافرون　　　　قل

قل　　　　كونوا حجارة او حديدا. أو

خلقا مما يكبر في صدوركم.

2. يتو فاكم م لك

الموت الذي وكل بكم	فسيقولون من يعيدنا؟
ـــــــــــــــ	قل الذي فطركم أول مرة.
ثم إلى ربكم ترجعون	

فقولهم في سورة السّجدة: ضللنا في الأرض. يقابله في سورة الإسراء: كنّا عظاما ورفاتا.

والثاني (كنّا...) بمعنى الأول (ضللنا...) فإن الذي يدفن في الأرض سيتحول إلى (عظام ورفات) ومع هذا فبينهما فرق دقيق, ففي قولهم (ضللنا في الأرض) استبعاد إخراجهم منها مرة أخرى بلا إشارة إلى السبب الذي حداهم إلى ذلك الاستبعاد. فضللنا – هنا - تعني تهنا وضعنا. أمّا في قولهم (كنا عظاما ورفاتا) فإنّهم يوضحون سبب ذلك الاستبعاد: إذ ليس من المعقول – عندهم – أن يعادوا في خلق جديد بعد أن تبلى أجسادهم وتتحول إلى عظام وتراب!!

لذا فإن كلامهم الأول كان يقتضي الرد بأنّ الذي يميتكم ويجعلكم مدفونين في داخل الأرض, قادر على ان يخرجكم منها. أمّا كلامهم الثاني فقد كان يقتضي استصغار ما يذكرونه من أنّ تحولهم إلى عظام ورفات يمنع من بعثهم مرة أخرى, ولذا جاءهم الجواب الحاسم:

كونوا	– في مقابل –	كنا
حجارة	– في مقابل –	عظاما
أو حديدا	– في مقابل –	ورفاتا

وزاد عليه القرآن (أو خلْقا مما يكبر في صدوركم) إشعارا لهم بأنّ السبب الذي يذكرونه لاستبعادهم نشورَهم يوم القيامة ليس بالسبب الوثيق الذي يصح الارتكان اليه, فإنّ الصور التي سيستحيلون إليها لن تمنع من رجعتهم إلى الله.

وخلاف آخر في الجواب: إذ جاء في السجدة قوله تعالى: (يتوفاكم ملك الموت الذي وُكّل بكم) ولم يذكر في جواب استفهام سورة الإسراء شيء من ذلك.

وهذا عائد إلى الخلاف الدقيق في المعنى بين قولهم: (أإنا لفي خلق جديد) في السجدة, وقولهم (أإنا لمبعوثون خلقا جديدا) في الإسراء.

ففي القول الاول ليس من ذكر للمبعث ولا للباعث. فهو متكون من: همزة الاستفهام + ضمير المتكلمين + لام التوكيد + الجار والمجرور والصفة.

أمّا في القول الثاني فقد وردت فكرة البعث والنشور على لسانهم حتى إن كانوا منكرين لها إذ إنّ هذا الانكار فيه ظل من الشك لا يرقى به إلى مستوى الجزم واليقين الذي حصل للقائلين (أإنا لفي خلق جديد؟). فإنّ لفظة (لمبعثون) مشيرة إلى وجود فكرة البعث الأخروي في أذهانهم, وكذلك الباعث وهو الله.

وبسبب من هذا نلاحظ تغييرين آخرين هما:

أ- (بل هم بلقاء ربهم كافرون) في أعقاب (أإنا لفي خلق جديد) إشارة تؤكد كفرهم ويقينهم مما هم عليه. على حين لم ترد مثل هذه الإشارة في أعقاب قولهم: (أإنا لمبعوثون خلقا جديدا).

ب- إنّ أسلوب الاستفهام في سورة السجدة قد انتهى بقوله تعالى: (ثم إلى ربكم ترجعون), أمّا في سورة الإسراء فقد استمر على شكل حوار ما بين سؤال وجواب لينتهي بقوله تعالى: **"يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ..."** الإسراء: ٥٢

فالاستفهامان صادران من معاندين بلا ريب, غير أنّ درجات العناد قد اختلفت بين فريق وفريق, فمن هنا كان الانتهاء من الفريق الأول (المذكور في سورة السجدة) حاسما قاطعا, على حين كان استمرار الحوار مع الفريق الثاني (المذكور في سورة الإسراء).

ومن هذا القبيل – مع شئ من اختلاف البناء – قوله تعالى:

5-قال تعالى: **"يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ"** النازعات: ١٠ – ١٤ حيث تقدّم الاستفهام الذي كان مؤخّرا في الآيتين السابقتين, وتأخرت جملة "اذا الشّرطيّة" التي كانت متقدمة هناك, وإنما حدث هذا التقديم لأنه يتصل بفريق ثالث من أولئك المكذبين, هذا الفريق الثالث مذبذب بين الإيمان والكفر, بين التصديق بالقيامة والتكذيب بها, فلا هم مثل الفريق المذكور في (السّجدة) الجازم بإنكار البعث, ولا هم مثل الفريق المذكور في الإسراء, الذي يشك شكا عظيما في البعث وهو أميل إلى إنكاره. أمّا هؤلاء المذكورون في النازعات فلا يستطيعون ترجيح أمر على أمر.

ولذا تكون تساؤلاتهم تساؤلات حيرة, وتساؤلات ذهول:

- (أإنا لمردودون في الحافرة؟)

- نعم إنكم لمردودون.

- (أإذا كنا عظاما نخرة؟)

- نعم حتى إذا كنتم عظاما نخرة .

هنا يأتي تعقيبهم الدال على ذلك التذبذب: (تلك إذا كرّة خاسرة).

وفي هذه الحالة النفسية المضطربة القلقة يقرر القرآن الكريم (فانما هي زجرة واحدة...) كجواب غير مباشر على الاستفهامين المتقدمين. جواب لم يعتمد على أيّ من حروف الجواب, احتقارا لهم وإهمالا لتساؤلاتهم التي ليس لها مسوغ, وردعهم بجواب ينمّي في نفوسهم الإيمان بالبعث والنشور, عسى أن يؤمنوا.

ولما كان إنكارهم غير مرتكز على ركن مكين قويم, فإنّ وضعيتهم وتساؤلاتهم من الأمور التي تكشف عن ضحالة تفكيرهم.

6- **قال تعالى: "وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"** الرعد: ٥

وتظل استفهاماتهم بلا جواب صريح, وانما قصارى حقها هذا الجواب الضمني (وأولئك اصحاب النار..) !!

والاستفهام في سياق هذه الآية لم يصدر منهم مباشرة, وانما حكاه الله لنبيه بضمن ما حكاه من أحوالهم وما هم عليه من ضلال, بدليل استخدامه ضمير الغائبين في: (قولهم) واسم الاشارة (أولئك). وانما ساغ لنا عدّه من صور الاستفهام لأنه جاء بلفظ الاستفهام.

ومثل هذا من حيث تلاحُق الاستفهامات, قوله, تعالى, عنهم:

7 – قال تعالى: **"...وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ"** النمل: ٦٥ – ٧٢ وسُبقت هذه الاستفهامات بتقرير حقائق يُنكرها القوم. وقد صيغت تلك الحقائق

بأسلوب مباشر واضح متّخذا من أداة الإضراب (بل) وسيلة لمزيد من التوكيد. فهم لا يشعرون متى يُبعثون, ثم هم قد ادّارك علمهم بالآخرة, فهم في شكّ منها, ثمّ هم عُمْيٌ لا يرونها.

مقدمات الاستفهام	حرفه	جملته	جوابه
عدم الشعور بأوان البعث ← ↓ تدارك علمهم في الآخرة ← ↓ الشك ← ↓ العماء	الهمزة ← كيف؟ ← متى؟ ←	إذا كنا ترابا؟ ← إنا لمُخْرَجُون؟ كان عاقبة المجرمين؟ ← هذا الوعد ←	السير في الأرض والنظر في عاقبة المجرمين. لا تحزن عليهم... عسى ان يكون ردف لكم..

استفهام مركب من عدة استفهامات متداخلة لغرض بيان عظمة الله وتثبيت فكرة القيامة في أذهان الناس. ولاستنقاذ من يمكن استنقاذه من ذلك الشّكّ والتّكذيب.

ونلاحظ في هذا الاستفهام تداخل المقدمات وجملة الاستفهام وجوابه, على طريقة التساوي والتقابل بين كل مقدمة وجزء من الجملة وجزء من الجواب, عبر أداة من أدوات الاستفهام وافية بالغرض الذي وضعت له في أصل الاستعمال اللغوي, مع عدم ارتباط الجواب بها, للتعبير عن استصغار شأنهم والاستهانة بفحوى استفهامهم الدال على انكار البعث.

فإنّ انعدام الشعور = كونهم ترابا, ويقابله: التفكر واستدعاء الشعور (السير في الارض والتفكر).

وإنّ تدراك علمهم في الآخرة = عدم انبعاثهم, ويقابله: عاقبة المجرمين.

إذ إنّ تدارك علمهم في الآخرة جريمة سواء بحد ذاته أم بما يؤدي إليه من سلوك سيّء وعمل طالح.

وإن الشك = جهلهم بعاقبة المجرمين.. ويقابله لا تحزن عليهم / ولا تكن في ضيق مما يمكرون.

(وهنا تأتي "كيف" لحكاية الحال) فهم جهلة شكاكون ولذلك سينالون جزاءهم على وفق جهلهم وشكّهم.

وإنّ العماء = عدم التسليم للّه بوعد القيامة, ويقابله: نزول بعض ذلك العذاب الأخروي بهم. ويؤدّي إلى: (التحدي بسؤال: متى هذا الوعد) وعُبّر عنه بـ"عسى".

وهكذا تتصاعد المقدمات, فتتصاعد جملة الاستفهام, ويتصاعد الجواب, الخط البياني نفسه لترسيخ معنى القيامة.

كما إنّ أجزاء كل نوع تتلازم وتتماسك بحيث يؤدي السابق إلى اللاحق بشكل طبيعي مطرد.

عدم الشعور يؤدي إلى تدارُك العلم في الآخرة, وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بـ (بل هم منها عمون).

وكذا: الاستحالة إلى التراب, تؤدي إلى النشور, وهذا يؤدي إلى العقاب (عقاب اولئك المنكرين), وهذا العقاب يشمل عقابا في الدنيا وآخر في الآخرة.

وكذا: سَيْرُهم في الارض يؤدي إلى إقامة الحجة عليهم (اذ تكون عاقبة المجرمين واضحة أمام أبصارهم), وإقامة الحجة عليهم تؤدي إلى دعوة النبي إلى أنْ لا يحزن عليهم, وعدم حزن النبي عليهم يؤدي إلى ألاّ يكون في ضَيْق مما يمكرون, وهذا يؤدي إلى انهم سيعذبون, وسينالون جزاءهم فلا وجه للضيق بمكرهم.

ونلاحظ أنّ الجواب لم يكن جوابا مباشرا على التساؤل, ولم يستخدم أيّا من أدوات الجواب, إشعارا لهم بضآلتهم, وتفاهة موقفهم, ولذا لا يُعتدّ بهم ولا يُجاب عن استفهاماتهم إجابات مباشرة, وإنما حسبهم أنْ يعرفوا حالهم من سياق الجواب.

ونلاحظ أيضا أنّ حرف الاستفهام (الهمزة) هو الحرف الرئيس في هذا الأسلوب حيث أدّى الغرض منه في المقدمتين الأولى والثانية, على حين أدّى (كيف) الغرض منه في سياق حالهم, أي في سياق شكّهم. أمّا (متى) فقد أدّى دوره في سياق يقينهم من باطلهم. ولمّا كان الشك والعماء متفرّعين من المقدّمتين الاولى والثانية (عدم الشّعور بأوان البعث, وتدارُك علمهم بالآخرة) فإنّ (كيف, ومتى) -الواردين مع المقدّمتين الثالثة والرابعة- متفرعان من الهمزة التي جاءت للتساؤل في المقدّمتين الأولى والثانية.

******

ونأتي مرة اخرى إلى فريق من أولئك المذبذبين المضطربين القلقين يتساءلون بالتساؤلات السالفة ذاتها, فيكون جوابهم ما بين وعيد شديد, وما بين حجاج ودعوة إلى الهداية.

أإذا.. أإنّا؟ (2)

8- قال تعالى: "**وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52)**"الواقعة: ٤٧ - ٥٢

انهم يستفهمون بهذا الاستفهام المركب (أإذا.. أإنا..) كالذي مرّ في سورة الإسراء, غير أنهم يضيفون هنا (أوَ آباؤنا الأولون) فتشير هذه الاضافة إلى زيادة تعمّق الإنكار في نفوسهم, فلذلك احتاجوا إلى ردع عن طريق تقرير حقيقة (ان الأولين والآخرين لمجموعون..) وبهذا التهديد والوعيد, وبهذه القوة والحسم أجابهم القرآن, ليخفّف من غلواء إنكارهم وضلالهم. وليمهّد السبيل لمحاولة استنقاذهم وهدايتهم باستخدام مجموعة من الاستفهامات البسيطة الواضحة التي تأتي عقب هذه الآيات وبعد وصف عذاب جهنّم الذي ينال المكذّبين الضالّين.

وإنّما يواصل القرآن الحوار معهم بتذكيرهم بأفضال الله عليهم, لأنّ ضلالهم وعنادهم يُمكن أن يزولا, بحكم أنّهم, في أعماق نفوسهم, يعلمون صدق النبيّ فيما يخبرهم به من شأن الآخرة. وذلك لأن الألفاظ التي حكاها القرآن عنهم تتضمّن ذكر البعث, كالذين مرّ ذكرهم في سورة الإسراء. ولذلك تكوّن كلّ استفهام, من الاستفهامات اللاحقة, من جزأين, الجزء الاول مرتبط بحياتهم, والجزء الثاني عن فاعل ذلك. وقد جاءت هذه الاستفهامات عُقيب قوله تعالى "**نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ**" الواقعة: ٥٧ على هذا النمط:

أ + ف + رأيتم + توصيفه	أ + أنتم + فعل + أم + نحن+ وصف
أفرأيتم ما تمنون؟ (الواقعة 58)	أأنتم تخلقونه ام نحن الخالقون؟ (59)
أفرأيتم ما تحرثون؟ (63)	أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون؟ (64)
أفرأيتم الماء الذي تشربون؟ (68)	أأنتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون؟ (69)
أفرأيتم النار التي تورون؟ (71)	أأنتم أنشأتم شجرتها ام نحن المنشئون؟ (72)

فسبح باسم ربك العظيم (74)

استفهامات لم يذكر القرآن الكريم لها جوابا ليترك لهم مجالا للتفكر ومراجعة النفس. وانما جاء هذا الحجاج عن طريق هذه الاستفهامات المتكررة المتتابعة في هذه السورة, كما سبق أن جاء شيء من ذلك في سورة الإسراء, لما سبق أن قلناه من أنّ كلمة (لمبعوثون) التي نطق بها أولئك الضالون المكذبون في سياق استفهامهم لتشير إلى أنّ في نفوسهم شيئا من القلق والاضطراب والتذبذب, فلفظة (لمبعوثون) دالة على أنّ فكرة البعث موجودة عندهم, لكنهم – في هذه السورة – أمعن في إنكارهم لها من المذكورين في سورة الإسراء, إذ هؤلاء زادوا على أولئك (أوَ آباؤنا الأولون) فجاءهم الزجر والوعيد في الجواب (قل إنّ الأولين...) تمهيدا لتغليب الإيمان على الكفر عن طريق الاستفهامات المتعاقبة عن أشياء من حياتهم وبيئتهم.

ولا يخطيء الملحظ في تبين هذا الحجاج ومحاولة الإقناع, في كل أساليب الاستفهام ب، (أإذا..) حين تأتي في السياق لفظة (لمبعوثون) من قبيل قوله تعالى:

9- بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90)" المؤمنون: ٨١ - ٩٠

حيث زاد هؤلاء في استفهامهم تقريرا خطيرا دالاّ على تعمق في الإنكار اكثر من المذكورين في سورة الواقعة, ذلك قولهم (إنْ هذا إلا أساطير الأولين), فجاء ردعهم (بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون). ومع هذا فان ظلال فكرة البعث الملحوظة في (لمبعوثون) تدعو إلى ضرورة إقامة الحجة عليهم ومحاولة توعيتهم, ومن هنا جاء الحجاج معهم لإقناعهم وإنقاذهم من سوء ما هم عليه.

واتّخذ ذلك الحجاج أسلوب الاستفهام المتعاقب المتتالي لتركيز الفكرة في نفوسهم وأخذ الأقطار عليهم باستخدام مختلف أدوات الاستفهام (لمن, أفلا – مَن, أفلا – مَن, فأنّى) حيث جاءت (فأنّى) خاتمة وقاطعة عليهم سبيل الهروب, فإذا ظلوا على عنادهم – بعد هذا كله – فليعلم الجميع أنّ هذا هو الحق وأنهم لكاذبون.

ومثل لفظة (لمبعوثون) كل لفظة أخرى ترد في سياق الاستفهام مفيدة وجود ظلال من الشّكّ في الموقف المعلن من البعث والنّشور, تلك الظلال هي التي يتعامل معها القرآن بحسب فحوى السياق, ودلالة اللفظ على ما في نفس المستفهم او المتسائل. كما في:

10- "ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ" ق: ١ - ٣

لم يُجب القرآن الكريم استفهامهم, بل اتخذه ذريعة للحديث عن آيات الله وفضله, وعمّن كذّب من الأقوام قبلهم, وعن مسؤولية الإنسان, وعن الموت, والقيامة, وجهنم, والجنة, ثم التذكير بآلاء الله وفضله, ليكون كل ذلك مهادا لجواب غير مباشر عما حكاه من استفهام الكافرين, وذلك قوله تعالى: " وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ"ق:٤١-٤٥

المقدمات		حرف الاستفهام	جملته	جوابه
السببية	الاستفهامية			
مجيء المنذر منهم	أإذا	أ	متنا	واستمع....

حيث ان مجيء المنذر منهم, ودعوته لهم, وتخويفهم من المعاد وتعجبهم من ذلك, دفعهم إلى حجاج استفهاميّ يعبرون به عن قناعتهم: (أإذا...), لكنهم قالوا – وهم في صدد بيان قناعتهم تلك (ذلك رجع بعيد) فهو عندهم ليس امرا مستحيلا ولكنه أمر مستبعد, فهم ليسوا جازمين بإنكار المبعث إنكارا تاما كاملا, وإنما هناك شك ما, شك قد يكون ضئيلا, استدعى تذكيرهم بآلاء الله, والتخويف من جهنم, والترغيب في الجنة, ومن لم يتزحزح منهم عن استفهامه وتساؤله المنكر للبعث بعد كل هذا التذكير, يجبهه التوكيد أنّ القيامة أمر واقع لا محالة, فكان ذلك التوكيد بمثابة جواب غير مباشر لما قدموه ممن استفهام مشروط بكونهم يموتون ويستحيلون إلى تراب.

وعلى الذسق نفسه الملحوظ في الآيات السابقة يأتي ذسق الجواب هنا أيضا منسجما مع المقدمات.

* أإذا متنا (على تخيل أنّهم يموتون من عند أنفسهم) يردّه: إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير.

* وكنّا ترابا, يردّه: يوم تشقق الأرض عنهم سراعا

* ذلك رجع بعيد, يردّه: ذلك حشر علينا يسير

ثم يأتيهم الجواب بتناول آخر (نحن أعلم بما يقولون..).

وكل هذه الآيات جواب على الاستفهام المتقدم في أول السياق (أإذا كنّا) وهو جواب غير مباشر, وبلا أيّة أداة من أدوات الجواب, أداء لمعنى إذلالهم وتحقيرهم ما داموا مصرين على عنادهم على الرغم من عدم اقتناعهم بذلك العناد في أعماق أنفسهم, بل تأخذهم إليه مصالحهم الضيّقة وما يكسبونه نتيجة خداعهم للنّاس باسم الآلهة التي يعبدون. ومن هذه الألفاظ ذات ظلال الشك المتسرب إلى عقائد القوم لفظة (أُخْرَج) على البناء للمجهول المذكورة في سياق استفهامي بـ (أإذا..) وذلك قوله تعالى:

11- وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68)

مريم: ٦٦ - ٦٨

فان قوله (أُخْرَج) يشير إلى أنّه يشعر أنّ خروجه كَرّة أخرى لن يتمّ بوساطته هو, وإنما هناك من سيخرجه, وهذا الاستعمال للفعل المبني للمجهول, والعدول عن استعمال (أَخْرُج) يشير إلى أنّ المشار إليه – في أعماق نفسه – موقن بأنّ ثمّة قوّة هي التي خلقته, وأنّه لن يخرج من قبره إلا بتلك القوّة ذاتها, فاقتضى ان يُحاجَج باستفهام منسجم مع استفهامه, ومن هنا تمّ استخدام (أو لا) وكذلك تذكيره بخلقه عن طريق ذلك الاستفهام الذي تُرِك بلا جواب ليعطى المستفهم منه فرصة مراجعة نفسه والانصياع للحق وإلا... (فوربِّك لنحشرنهم...).

ويستخدم القرآن أسلوب الاستفهام ذاته (أإذا.. أإنا..). لتصوير المآل الذي سيؤول إليه أولئك المعاندون والمكابرون أيّا كانت درجات شكوكهم بالبعث والنشور.

فبعد أن يصف نعيم أهل الجنة, يقول:

12- " **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**" الصافات: ٥٠-٥٩

ففي هذه الآيات جملة استفهامات هي:

أ- أإنك لمن المصّدقين؟

ب- أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون؟

استفهامان انكاريان صادران من قرين كافر ثوى في جهنم.

وأيضا:

ج- هل أنتم مطّلعون؟ طلب صادر من قرين إلى قرنائه من أصحاب الجنة.

د- أفما نحن بميّتين إلاّ موتتنا الاولى؟

هـ- وما نحن بمعذبين؟

والاستفهام (هـ) معطوف على الاستفهام (د) وسبق صدورهما في الحياة الدّنيا, ممن ثوى في جهنم, والآن يعيدهما عليه - للتبكيت والسخرية - القرين الذي فاز برضوان الله. حيث يربط السياق بين ما سيجري في الآخرة وما عليه القوم في الدنيا. فهذا الذي يُنكر البعث ويرى أنّ موت المرء نهاية له, ولا حياة بعد الموت, عليه أن يعرف المصير الذي سيصير إليه إنْ أصرّ على عناده ورفضه للإيمان بالآخرة, حيث ينال كلّ امرئ جزاءه بموجب قوله تعالى: " **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**" الزلزلة: ٧ – ٨ فصور الآخرة لا تُذكر للاستئناس, بل لتقديم صورة نعيم وعذاب, فيختار المرء, بعمله وسلوكه في حياته, أيّهما شاء.

****

أألآن – آلآن؟

13- " **وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ**

كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (52) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) " يونس: ٤٨ - ٥٣

حوار مع مُنكري يوم القيامة, يثبّت مفاهيم متعدّدة، منها:

* إنّ النبيّ لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرّا إلا ما شاء الله. والله, تعالى, قد شاء أن تكون القيامة بعلمه هو, وفي الأجل الذي حدّده.

* إنّ سؤالهم عن موعد ذلك اليوم لا مبرّر له, فالنبيّ لا يملك إجابة عنه.

* إنّ أجل الله إذا جاء لا يؤخّر ولا يُقدّم, وآنذاك لا ينفعهم ندمهم وإعلانهم الإيمان, فقد فات الأوان.

* وإنهم سيُجزون بما كانوا يكسبون. وليؤكد لهم النبيّ أنّ الوعد حقّ لا جدال فيه.

هنا سبعة استفهامات انطلقت كلّها في أعقاب استفهام بأداة الاستفهام (متى). وهي: أرأيتم, ماذا, أثمّ, آلآن, المتكوّن من (همزة + ألآن), هل تُجزَون, أحقّ هو. وهذا الاستفهام الأخير سُبق بما يُفيد أنّه استفهام حقيقيّ, وذلك بمجيء الفعل: (ويستنبئونك) أي: يطلبون منك أنْ تُنْبِئهم. ولذلك جاء له جواب بحرف جواب واضح ومؤكّد بالقسَم: (إي وربّي).

لذلك نرى أنّ الاستفهام الخامس متفرع عمّا قبله, فأما الاستفهامان اللذان جاءا من بعده فمستقلان عنه لكنهما متفرعان من الاستفهام الأول (متى) الذي حدّد مسار السياق وأوصله إلى غايته:

فإنّ تساؤلهم: (متى هذا الوعد)؟ ينتج عنه أربعة مساقات من الاستفهام, ثمّ يلتقي الجميع في التساؤل النّهائي: (آلآن؟) بعد أن يتبيّن للمنكرين خطأهم وضلالهم, ولكنّ أوان التوبة قد انتهى. أمّا المساقات الأخرى, فهي:

* المساق الأول: (أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا او نهارا؟ ← ماذا يستعجل منه المجرمون؟) وهو تقرير لهم بسوء مآلهم نتيجة سوء معتقداتهم وأفعالهم.

* المساق الثاني: (أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا او نهارا؟ ← هل تُجزون إلا بما كنتم تكسبون؟) ليؤكّد مصيرهم.

* المساق الثالث: (أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا او نهارا؟ ← أثُمّ إذا ما وقع آمنتم به؟) يوبّخهم منبّها لهم أنّ إيمانهم حين وقوع العذاب بهم لن ينفعهم شيئا. وقوله (أثمّ) دالّ دلالة واضحة على

وقوع العذاب بهم إن أصرّوا على ضلالهم. إذ إنّ معناه: أحين يقع العذاب بكم تُعلنون إيمانكم؟ فأيّ إيمان هذا؟ ولذلك لن يُقبَل منكم, فعليكم المبادرة إلى الإيمان قبل فوات الأوان.

* ثمّ يأتي المساق الرابع: (أحقٌّ هو؟) الذي نراه استفهاما حقيقيّا يطلبون به التأكّد من وقوع القيامة وحلول العذاب بالمكذّبين, على ما سنوضّحه في هذا التخطيط وما يعقبه:

حيث ان أداة الاستفهام (متى) هي مفتاح الولوج إلى سائر الاستفهامات, وهي الوسيلة المتخذة للتعبير عن الفكرة التي تؤديها هذه الآيات مجتمعة. فاستخدام (متى؟) كان السبيل لكل من:

1- إن النبيّ لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا الا بمشيئة الله.

2- إن لكل أُمّة أجلا فإذا حلّ أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وهاتان الفكرتان اللتان صيغتا في الآية (49) لا تمثلان جوابا عن الاستفهام بمتى. وهذا دالّ على أن القرآن لا تهمّه الإجابة المباشرة على أسئلة أولائك القوم استصغارا لشأنهم من ناحية, وتثبيتا لما يريد بيانه من ناحية أخرى, وتنشيط تفكيرهم باتجاه طلب الحقيقة من ناحية ثالثة.

3- تخويفهم من العذاب الذي يأتي ليلا أو نهارا باستخدام:

الهمزة + رأيتم.. + ماذا..؟ وهو استعمال استفهامي خاص.

وهو أيضا لا يمثل جوابا لاستفهام (متى..؟). وهذا الاستفهام يؤدي الفكرة بلا حاجة لذكر الجواب, لأنّ الجواب المباشر غير نافع مع هؤلاء, باستثناء المائلين للتّصديق ممّن ذُكروا في آخر النّصّ. حيث يبدو أنّ هؤلاء كانوا بحاجة إلى التوثّق من الأمر, لذلك طلبوا من النبيّ أن يؤكّده لهم, فجاءهم جواب مباشر: (قُلْ إي وربّي إنّه لَحَقّ).

4- إن العذاب واقع بهم لا محالة, وآنذاك سيندمون ويعلنون إيمانهم. وهذه الفكرة مؤداة, باستفهامين متداخلين:

(أثم.... + آلآن...)

5- دخولهم عذاب الخلد الذي استحقوه بما قدّموه. وقد أديت هذه الفكرة (بالأمر + هل... + إلا..) لإفادة توكيد عذابهم.

6- إنّ هذا الوعد حق لامراء فيه. وعبّر عن هذا المعنى باستفهام وجواب وقسم وتوكيد:

(همزة..... أي + وربي... إنّ + لام التّوكيد... بـ)

وما كان الوصول إلى بلورة هذه الفكرة المتكونة من عدّة أفكار متضامّة, ممكنا لولا الانطلاق من استفهام (متى..؟).

وإن النظر الدقيق في هذه الأفكار ليؤدي إلى تقرير أنّ التماسك الذي بينها تماسك سببه تعلق اللاحق بالسابق, تعلق النتيجة بالسبب, وأن كل فكرة سابقة تؤدي إلى اللاحقة بعلاقة وثيقة من المعنى واللفظ.

واذا استخلصنا أسلوب (آلآن) من غيره يتكون لدينا:

مقدمات الاستفهام	حرفه	جملته	جوابه
وقوع العذاب فإيمانهم	أ	الآن؟ (تعلنون إيمانكم)	×××

فجملة الاستفهام مفهومة من السياق. وأما جملة الجواب فلا جواب لأنّ الاستفهام توبيخي, يوبخهم على عدم إيمانهم قبل حلول العذاب ونزوله بهم.

وأمّا المقدمات فقد صيغت على أسلوب (أإذا) الذي مر سابقا, مع تغييرين يؤدي أولهما إلى الثاني, وهما:

أ- دخول حرف العطف (ثم) بين همزة الاستفهام وأداة الشرط, إذا: (أثُمَّ إذا)، ونذهب إلى أن اصل الأسلوب: (ثم + الهمزة + إذا)... "ثم أإذا" غير أنّ همزة الاستفهام لها الصدارة في الكلام فيجب أنْ تكون متقدمة لتتأخر عنها (ثم). وحرف العطف (ثم) ليس زائدا, وانما جاء لبيان حالهم, ولترتيب اجزاء الحدث, وبخاصة أنّ ما قبل حرف العطف ليس حدثا قد وقع وتحقّق وقوعه وانتهى أمرُه, وإنما هو استفهام عما سيفعلون إن نزل بهم العذاب الذي يستعجلون.

ب- عدم دخول أداة الاستفهام (الهمزة) على آمنتم, أي على غير نسق (أإذا متنا... أإنا) وسبب هذا مجيء (ثم) فاصلة بين الهمزة, و(إذا) لأن هذا الانفصال يعني أن همزة الاستفهام قد دخلت على الجملة برمتها لا على (ثم) لوحدها. فالاستفهام ليس عن (ثم) وانما الجملة المبتدئة بها. وليس الحال كذلك في (أإنا... أإنا..) الواردة سابقا, حيث دخلت همزة الاستفهام على (إنّا) بمعنى أنّهم لا قيامة لهم.

وقد نواصل بحث سائر صيغة تساؤلات القرآن الكريم على وفق هذا النهج المعتمد على التحليل اللغوي للنص.